العدد 1933 - السنة السابعة
الثلاثاء 15 شوال 1435 - الموافق 12 أغسطس 2014
Tuesday 12 August 2014 - No.1933 - 7th Year

لمحات من أطول سور القرآن بعد البقرة (1)

«النساء» تمثل جانباً من جهد الإسلام في بناء الجماعة المسلمة وإنشاء المجتمع وحمايته

سورة النساء مدنية، وهي أطول سور القرآن – بعد سورة البقرة – وترتيبها في النزول بعد سورة الممتحنة، التي تقول الروايات: إن بعضها نزل في غزوة الفتح في السنة الثامنة للهجرة، وبعضها نزل في غزوة الحديبية قبلها في السنة السادسة.

ولكن الأمر في ترتيب السور حسب النزول – كما بينا في مطالع الكلام على سورة البقرة في الجزء الأول – ليس قطعيا. كما أن السورة لم تكن تنزل كلها دفعة واحدة في زمن واحد، فقد كانت الآيات تتنزل من سور متعددة، ثم يأمر النبي –صلى الله عليه وسلم – بوضع كل منها في موضعه من سورة بذاتها والسورة الواحدة – على هذا – كانت تظل «مفتوحة» فترة من الزمان تطول أو تقصر وقد تمتد عدة سنوات وفي سورة البقرة كانت هناك آيات من أوائل ما نزل في المدينة، وآيات من أواخر ما نزل من القرآن.

وكذلك الشأن في هذه السورة فمنها ما نزل بعد سورة الممتحنة في السنة السادسة وفي السنة الثامنة كذلك. ولكن منها الكثير نزل في أوائل العهد بالهجرة. والمنتظر – على كل حال – أن يكون نزول آيات هذه السورة قد امتد من بعد غزوة أحد في السنة الثالثة الهجرية، إلى ما بعد السنة الثامنة، حين نزلت مقدمة سورة الممتحنة.

ونذكر على سبيل المثال الآية الواردة في هذه السورة عن حكم الزانيات: «واللاتي يأتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهن أربعة منكم، فإن شهدوا فأمسكوهن في البيوت، حتى يتوفاهن الموت أو يجعل الله لهن سبيلا».. فمن المقطوع به أن هذه الآية نزلت قبل آية سورة النور التي بينت حد الزنا: «الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة، ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله، إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر، وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين».. وهذه الآية الأخيرة نزلت بعد حديث الإفك في السنة الخامسة [أو في السنة الرابعة على رواية] فقد قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم – حين نزلت: «خذوا عني، خذوا عني. قد جعل الله لهن سبيلا..»... إلخ. وكان السبيل هو هذا الحكم الذي تضمنته آية النور.

وفي السورة نماذج كثيرة كهذا النموذج، تدل على تواريخ نزولها على وجه التقريب على النحو الذي بيناه في مطالع الكلام عن سورة البقرة.

هذه السورة تمثل جانبا من الجهد الذي أنفقه الإسلام في بناء الجماعة المسلمة، وإنشاء المجتمع الإسلامي، وفي حماية تلك الجماعة، وصيانة هذا المجتمع. وتعرض نموذجا من فعل القرآن في المجتمع الجديد، الذي انبثق أصلا من خلال نصوصه، والذي نشأ ابتداء من خلال المنهج الرباني. وتصور بهذا وذلك طبيعة هذا المنهج في تعامله مع الكائن الإنساني، كما تصور طبيعة هذا الكائن وتفاعله مع المنهج الرباني.. تفاعله معه وهو يقود خطاه في المرتقى الصاعد من

أبرزت التكاليف التي اقتضاها النهوض بأمانة الإنسان في الأرض وتصوير طبيعة أعداء المنهج والتحذير من دسائسهم

السفح الهابط، إلى القمة السامقة.. خطوة خطوة، ومرحلة مرحلة.. بين تيارات المطامع والشهوات والمخاوف والرغائب، وبين أشواك الطريق التي لا تخلو منها خطوة واحدة، وبين الأعداء المتربصين على طول الطريق الشائك!

ونرى هنا مواجهة القرآن لكل الملابسات المحيطة بنشأة الجماعة المسلمة في المدينة، وبيان طبيعة المنهج الرباني الذي تنشأ الجماعة على أساسه، وتقرير الحقائق الأساسية التي يقوم عليها التصور الإسلامي، والقيم والموازين التي تنبثق من هذا التصور، وإبراز التكاليف التي يقتضيها النهوض بهذه الأمانة في الأرض، وتصوير طبيعة أعداء هذا المنهج وأعداء هذه الجماعة التي تقوم عليه في الأرض، وتحذيرها من وسائل أولئك الأعداء ودسائسهم، وبيان ما في عقائدهم من زيف وانحراف، وما في وسائلهم من خسة والتواء، فكذلك نرى القرآن – في هذه السورة – يواجه جملة هذه الملابسات والحقائق.

إلا أن لكل سورة من سور القرآن شخصيتها الخاصة، وملامحها المميزة، ومحورها الذي تشد إليه موضوعاتها جميعا.. ومن مقتضيات الشخصية الخاصة أن تتجمع الموضوعات في كل سورة وتتناسق حول محورها في نظام خاص بها، تبرز فيه ملامحها، وتتميز به شخصيتها، كالكائن الحي المميز السمات والملامح، وهو – مع هذا – واحد من جنسه على العموم!

ونحن نرى في هذه السورة – ونكاد نحس – أنها كائن حي، يستهدف غرضا معينا، ويجهد له، ويتوخى تحقيقه بشتى الوسائل.. والفقرات والآيات والكلمات في السورة، هي الوسائل التي تبلغ بها ما تريد! ومن ثم نستشعر تجاهها – كما نستشعر تجاه كل سورة من سور هذا القرآن – إحساس التعاطف والتجاوب مع الكائن الحي، المعروف السمات، المميز الملامح، صاحب القصد والوجهة، وصاحب الحياة والحركة، وصاحب الحس والشعور!

إن السورة تعمل بجد وجهد في محو ملامح المجتمع الجاهلي – الذي منه التقطت المجموعة المسلمة – ونبذ رواسبه، وفي تكييف ملامح المجتمع المسلم، وتطهيره من رواسب الجاهلية فيه، وجلاء شخصيته الخاصة. كما تعمل بجد وجهد في استجاشته للدفاع عن كينونته المميزة، وذلك ببيان طبيعة المنهج الذي منه انبثقت هذه الكينونة المميزة، والتعريف بأعدائه الراصدين له من حوله – من المشركين وأهل الكتاب وبخاصة اليهود – وأعدائه المتميعين فيه – من ضعاف الإيمان والمنافقين – وكشف وسائلهم وحيلهم ومكايدهم، وبيان فساد تصوراتهم ومناهجهم وطرائقهم، مع وضع الأنظمة والتشريعات التي تنظم هذا كله وتحدده، وتصبه في القالب التنفيذي المضبوط.

وفي الوقت ذاته نلمح رواسب الجاهلية، وهي تتصارع مع المنهج الجديد، والقيم الجديدة، والاعتبارات الجديدة. ونرى ملامح الجاهلية وهي تحاول طمس الملامح الجديدة الوضيئة الجميلة. ونشهد المعركة التي يخوضها المنهج الرباني بهذا القرآن في هذا الميدان وهي معركة لا تقل شدة ولا عمقا ولا سعة، عن المعركة التي يخوضها في الميدان الآخر، مع الأعداء الراصدين له والأعداء المتميعين فيه!

وحين ندقق النظر في الرواسب التي حملها المجتمع المسلم من المجتمع الجاهلي الذي منه جاء، والتي تعالج هذه السورة جوانب منها – كما تعالج سور كثيرة جوانب أخرى – قد ينالنا الدهش لعمق هذه الرواسب، حتى لتظل تغالب طوال هذه الفترة التي رجحنا أن آيات السورة كانت تتنزل فيها.. ومن العجب أن تظل لهذه الرواسب صلابتها حتى ذلك الوقت المتأخر.. ثم ينالنا الدهش كذلك للنقلة البعيدة السامقة الرفيعة التي انتهى إليها هذا المنهج العجيب الفريد، بالجماعة المسلمة. وقد التقطها من ذلك السفح الهابط، الذي تمثله تلك الرواسب، فارتقى بها في ذلك المرتقى الصاعد إلى تلك القمة السامقة.. القمة التي لم ترتق إليها البشرية قط، إلا على حداء ذلك المنهج العجيب الفريد المنهج الذي يملك وحده أن يلتقط الكينونة البشرية من ذلك السفح، فيرتقي بها إلى تلك القمة، رويدا رويدا، في يسر ورفق، وفي ثبات وصبر، وفي خطو متناسق موزون!

والذي يدقق النظر في هذه الظاهرة الفريدة في تاريخ البشرية، يتجلى له جانب من حكمة الله في اختيار «الأميين» في الجزيرة العربية، في ذلك الحين، لهذه الرسالة العظيمة.. حيث يمثلون سفح الجاهلية الكاملة، بكل مقوماتها الاعتقادية والتصورية، والعقلية والفكرية، والأخلاقية والاجتماعية، والاقتصادية والسياسية، ليعرف فيهم أثر هذا المنهج، وليتبين فيهم كيف تتم المعجزة الخارقة، التي لا يملك أن يأتي بها منهج آخر، في كل ما عرفت الأرض من مناهج، وليرتسم فيهم خط هذا المنهج، بكل مراحله – من السفح إلى القمة – وبكل ظواهره، وبكل تجاربه، ولترى البشرية – في عمرها كله – أين تجد المنهج الذي يأخذ بيدها إلى القمة السامقة، أيا كان موقفها في المرتقى الصاعد سواء أكانت في درجة من درجاته، أم كانت في سفحه الذي التقط منه «الأميين»!

إن هذا المنهج ثابت في أصوله ومقوماته، لأنه يتعامل مع «الإنسان»، وللإنسان كينونة ثابتة، فهو لا يتبدل منها كينونة أخرى، وكل التحورات والتطورات التي تلابس حياته لا تغير من طبيعته، ولا تبدل من كينونته، ولا تحوله خلقا آخر. إنما هي تغيرات وتطورات سطحية، كالأمواج في الخضم، لا تغير من طبيعته المائية، بل لا تؤثر في تياراته التحتية الدائمة، المحكومة بعوامل طبيعية ثابتة!

ومن ثم تواجه النصوص القرآنية الثابتة، تلك الكينونة البشرية الثابتة. ولأنها من صنع المصدر الذي صنع الإنسان، فإنها تواجه حياته بظروفها المتغيرة، وأطوارها المتجددة، بنفس المرونة التي يواجه بها «الإنسان» ظروف الحياة المتغيرة، وأطوارها المتجددة، وهو محافظ على مقوماته الأساسية.. مقومات الإنسان.

وفي «الإنسان» هذا الاستعداد، وهذه المرونة، وإلا ما استطاع أن يواجه ظروف الحياة وأطوارها، وهي ليست ثابتة من حوله وفي المنهج الرباني الموضوع لهذا الإنسان، ذات الخصائص، بحكم أنه صادر من المصدر الذي صدر منه الإنسان، ومودع خصائصه ذاتها، ومعد للعمل معه إلى آخر الزمان. وهكذا يستطيع ذلك المنهج، وتستطيع هذه النصوص، أن تلتقط الفرد الإنساني، وأن تلتقط المجموعة الإنسانية، من أي مستوى، ومن أية درجة من درجات المرتقى الصاعد، فينتهي به وبها إلى القمة السامقة.. إنه لا يرده ولا يردها أبدا إلى الوراء، ولا يهبط به أو بها أبدا إلى درجة أسفل في المرتقى، كما أنه لا يضيق به ولا بها، ولا يعجز عن رفعه ورفعها، أيا كان مكانه أو مكانها من السفح السحيق!

المجتمع البدائي المتخلف كالمجتمع العربي في الجاهلية القديمة، والمجتمع الصناعي المتحضر، كالمجتمع الأوروبي والأمريكي في الجاهلية الحديثة.. كلاهما يجد في المنهج الرباني والنصوص القرآنية مكانة، ويجد من يأخذ بيده من هذا المكان، فيرقى به في المرتقى الصاعد، إلى القمة السامقة، التي حققها الإسلام، في فترة حية من فترات التاريخ الإنساني.

إن الجاهلية ليست فترة ماضية من فترات التاريخ، إنما الجاهلية كل منهج تتمثل فيه عبودية البشر للبشر، وهذه الخاصية تتمثل اليوم في كل مناهج الأرض بلا استثناء، ففي كل المناهج التي تعتنقها البشرية اليوم، يأخذ البشر عن بشر مثلهم: التصورات والمبادئ، والموازين والقيم، والشرائع والقوانين، والأوضاع والتقاليد. وهذه هي الجاهلية بكل مقوماتها، الجاهلية التي تتمثل فيها عبودية البشر للبشر، حيث يتعبد بعضهم بعضا من دون الله.

والإسلام هو منهج الحياة الوحيد، الذي يتحرر فيه البشر من عبودية البشر، لأنهم يتلقون التصورات والمبادئ، والموازين والقيم، والشرائع والقوانين، والأوضاع والتقاليد، من يد الله – سبحانه – فإذا أحنوا رؤوسهم فإنما يحنونها لله وحده، وإذا أطاعوا الشرائع فإنما يطيعون الله وحده، وإذا خضعوا للنظام فإنما يخضعون لله وحده، ومن ثم يتحررون حقا من عبودية العبيد للعبيد، حين يصبحون كلهم عبيدا لله بلا شريك.

وهذا هو مفرق الطريق بين الجاهلية – في كل صورة من صورها – وبين الإسلام، وهذه السورة تتولى رسم مفرق الطريق بالدقة وبالوضوح الذي لا تبقى معه ريبة لمستريب.

ومفهوم أن كل أمر أو نهي أو توجيه ورد في القرآن الكريم، كان يواجه حالة واقعة في المجتمع الجاهلي، وكان يتوخى إما إنشاء حالة غير قائمة، وإما إبطال حالة قائمة.. وذلك دون إخلال بالقاعدة الأصولية العامة: «العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب».. ومع ملاحظة أن النصوص القرآنية جاءت لتعمل في كل جيل وفي كل بيئة كما أسلفنا، وفي هذا تكمن المعجزة. فهذه النصوص التي جاءت لتواجه أحوالا بعينها، هي ذاتها التي تواجه الجماعة الإنسانية، في أي طور من أطوارها. والمنهج الذي التقط المجموعة المسلمة من سفح الجاهلية، هو ذاته الذي يلتقط أية مجموعة – أيا كان موقفها على الدرج الصاعد – ثم يبلغ بها إلى القمة السامقة، التي بلغ إليها بالمجموعة الأولى، يوم التقطها من ذلك السفح السحيق!

ومن ثم فنحن حين نقرأ القرآن نستطيع أن نتبين منه ملامح المجتمع الجاهلي، من خلال أوامره ونواهيه وتوجيهاته، كما نستطيع أن نتبين الملامح الجديدة التي يريد أن ينشئها، وأن يثبتها في المجتمع الجديد.

فماذا نحن واجدون – في هذه السورة – من ملامح المجتمع الجاهلي التي ظلت راسبة في الجماعة المسلمة، منذ أن التقطها المنهج الرباني من سفح الجاهلية؟ وماذا نحن واجدون من الملامح الجديدة التي يراد إنشاؤها في المجتمع الإسلامي الجديد وتثبيتها؟

إننا نجد مجتمعا تؤكل فيه حقوق الأيتام – وبخاصة اليتيمات – في حجور الأهل والأولياء والأوصياء، ويستبدل الخبيث منها بالطيب، ويعمل فيها بالإسراف والطمع، خيفة أن يكبر اليتامى فيستردوها! وتحبس فيه الصغيرات من ذوات المال، ليتخذهن الأولياء زوجات، طمعا في مالهن لا رغبة فيهن! أو يعطين لأطفال الأولياء للغرض ذاته!

ونجد مجتمعا يجار فيه على الصغار والضعاف والنساء، فلا يسلم لهم فيه بنصيبهم الحقيقي من الميراث. إنما يستأثر فيه بمعظم التركة الرجال الأقوياء، القادرون على حمل السلاح، ولا ينال الضعاف فيه إلا الفتات. وهذا الفتات الذي تناله اليتيمات الصغيرات والنسوة الكبيرات، هو الذي يحتجزن من أجله، ويحبسن على الأطفال من الذكور، أو على الشيوخ من الأولياء. كي لا يخرج المال بعيدا ولا يذهب في الغرباء!

ونجد مجتمعا يضع المرأة موضعا غير كريم، ويعاملها بالعسف والجور، في كل أدوار حياتها، يحرمها الميراث – كما قلنا – أو يحبسها لما ينالها منه، ويورثها للرجل كما يورثه المتاع! فإذا مات زوجها جاء وليه، فألقى عليها ثوبه، فيعرف أنها محجوزة له. إن شاء نكحها بغير مهر، وإن شاء زوجها وأخذ مهرها! ويعضلها زوجها إذا طلقها، فيدعها لا هي زوجة، ولا هي مطلقة، حتى تفتدي نفسها منه وتفك أسرها!

ونجد مجتمعا تضطرب فيه قواعد الأسرة بسبب هبوط مركز المرأة فيه، علاوة على اضطراب قواعد التبني والولاء، واصطدامها مع قواعد القرابة والنسب، فوق ما فيه من فوضى في العلاقات الجنسية والعائلية، حيث تروج اتصالات السفاح والمخادنة.

ونجد مجتمعا تؤكل فيه الأموال بالباطل في المعاملات الربوية، وتغتصب فيه الحقوق. وتجحد فيه الأمانات، وتكثر فيه الغارات على الأموال والأرواح، ويقل فيه العدل فلا يناله إلا الأقوياء. كما لا تنفق فيه الأموال إلا رئاء الناس، اجتلابا للمفاخر، ولا ينال الضعاف المحاويج فيه من هذا الإنفاق ما ينال الأقوياء الأغنياء!

وليست هذه سوى بعض ملامح الجاهلية – وهي التي تصدت لها هذه السورة – ووراؤها ما صورته السور الأخرى، وما تحفل به أخبار هذه الجاهلية في العرب، وفيمن حولهم من الأمم.

إنه لم يكن – قطعا – مجتمعا بلا فضائل، فقد كانت له فضائله، التي تهيأ بها لاستقبال هذه الرسالة الكبرى، ولكن هذه الفضائل إنما استنقذها الإسلام استنقاذا، ووجهها الوجهة البناءة، وكانت – لولا الإسلام – مضيعة تحت ركام هذه الرذائل، مفرقة غير متجمعة، وضائعة غير موجهة. وما كانت هذه الأمة لتقدم للبشرية شيئا ذا قيمة، لولا هذا المنهج، الذي جعل يمحو ملامح الجاهلية الشائهة، وينشئ أو يثبت ملامح الإسلام الوضيئة، ويستنقذ فضائل هذه الأمة المضيعة المطمورة المفرقة المبددة، شأنها في هذا شأن سائر أمم الجاهلية التي عاصرتها، والتي اندثرت كلها، لأنها لم تدركها رسالة ولم تنشئها عقيدة!

من تلك الجاهلية، التي هذه بعض ملامحها، التقط الإسلام المجموعة التي قسم الله لها الخير، وقدر أن يسلمها قيادة البشر، فكون منها الجماعة المسلمة، وأنشأ بها المجتمع المسلم ذلك المجتمع الذي بلغ إلى القمة التي لم تبلغها البشرية قط، والتي لها تزال أملا للبشرية، يمكن أن تحاوله، حين يصح منها العزم على انتهاج الطريق.

السورة تعمل بجد وجهد في محو ملامح المجتمع الجاهلي ونبذ رواسبه وتطهير المجتمع المسلم منها

ما ادخره الله للصابرين من ثواب جزيل يفوق ضروب العبادات الأخرى

تقلب الإنسان على الخشن من أحوال الحياة لا يزيده من الله إلا قرباً

كرم الاسلام المتنصبين لأعراض الدنيا وواسى المتعبين مواساة تطمئن بالهم وتخفف آلامهم. «مثل المؤمن كمثل الخامة من الزرع تفيئها الريح، تصرعها مرة وتعدلها أخرى حتى يأتيه أجله. ومثل الكافر كمثل الأرزة المجذية على أصلها لا يصيبها شيء حتى يكون انجعافها مرة واحدة». «فالمؤمن السارب في الحياة هدف لمشاكلها الجمة، أما العاجز الهارب من الميدان فماذا يصيبه؟» وذاك سر قوله صلى الله عليه وسلم: «من يرد الله به خيرا، يصب منه» وقوله: «اذا أحب الله قوما ابتلاهم. فمن رضي فله الرضا، ومن سخط فله السخط» فالمتعرض لآلام الحياة، يدافعها وتدافعه، أرفع عند الله درجات من المنهزم القابع بعيدا، لا يخشى شيئا ولا يخشاه شيء.

وما ادخره الله لأولئك العانين الصابرين يفوق ما ادخره لضروب العبادات الأخرى من ثواب جزيل: «يود أهل العافية يوم القيامة، حين يعطى أهل البلاء الثواب، لو أن جلودهم كانت قرضت بالمقاريض». ومن الغرائب أن بعض الناس فهم أن الاسلام يمجد الآلام لذاتها ويكرم الأوجاع والأوصاب لأنها أهل التكريم والمودة. وهذا خطأ بعيد. فعن أنس بن مالك قال: رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم شيخا يهادي بين ابنيه، فقال: ما بال هذا؟! قالوا نذر أن يمشي! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ان الله عن تعذيب هذ لغني ابن عباس أن أخت عقبة نذرت الحج ماشية وذكر عقبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم انها لا تطيق ذلك. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «ان الله لغني عن مشي أختك، فتركب ولتهد بدنة». وقال الله عز وجل: «ما يفعل الله بعذابكم ان شكرتم وآمنتم». انما يحمد الاسلام لأهل البلوى وأصحاب المتاعب رباطة جأشهم وحسن يقينهم، وهو اذ يذكر لهم الأسقام التي يعانونها، أو الضوائق التي يواجهونها، لا يعنيه منها الا ما تنطوي عليه من امتحان يجب اجتيازه بقوة وتسليم، لا باسترخاء وتسخط على القدر: ورد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل على امرأة مريضة فوجدها تلعن الداء وتسب الحمى، فكره منها هذا المسلك وقال لها مواسيا: «انها أي الحمى تذهب خطايا بني آدم كما يذهب الكير خبث الحديد». فهل معنى ذلك أن نربي جراثيم المرض ونهديها الى من نحب ؟. كذلك يريد بعض الناس أن يفهم.. والجنون فنون؟.

والانسان في ابان المعركة قد يمرغ في التراب، وقد يضطره الحرج الى اقتحام المذاهب المعنتة، ولكنه في تقلبه على الخشن من أحوال الحياة لا يزيد من الله الا قربا، ما دام وثيق الايمان، رفيع الراس. ومن الخلط أن يحسب المسلم تلاحق الأذى عليه آية على نسيان الله له، وابعاده من رحمته، لكن هذا الفهم ساد بين المسلمين للأسف في عصور الانحلال والاضمحلال، وقد أسلفنا القول ان مصاعب الحياة تتمشى مع همم الرجال علوا وهبوطا. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ان الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن اسحاق بن ابراهيم. «ذيب هذا لغني» وأمره أن يركب. فهو نبي تربي في حجور أنبياء، وتحدر من شجرة عريقة، وهو كريم على الله بالاجتباء والرسالة. فانظر الى هذا الكريم كيف قضى مراحل حياته الأولى وهو يخرج من ضائقة ليدخل في أختها فقد أمه وهو طفل، ثم تآمر عليه اخوته فاختطفوه من أحضان أبيه ورموا به في البئر، ليلقى في غيابتها مصيره المجهول واستنقذه السيارة ليمتلكوه عبدا، ثم يبيعوه في سوق الرقيق بثمن بخس دراهم معدودة. وابتاعه ملك مصر. فما أن آواه في القصر حتى تعرض للدسائس الماكرة، فاتهم وهو العفيف الحصن، بأنه يبغي السوء. ومع ظهور براءته فقد طرح في السجن مع الأشقياء لا أياما أو شهورا، بل بضع سنين!! ولو أن شخصا آخر نظر الى ماضيه فوجده مثقلا بالآلام على هذا النحو لضاق بالأرض وتنكر للسماء، بيد أن يوسف الصديق بقي متألق اليقين وراء جدران السجن يذكر بالله من جهلوه، ويبصر بفضله من جحدوه. «يا صاحبي السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار، ما تعبدون من دونه الا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان ان الحكم الا لله أمر ألا تعبدوا الا اياه ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون». وذلك شأن أولي الفضل من الناس، لا يفقدون صفاء دينهم ان فقدوا صفاء دنياهم، ولا يهونون أمام أنفسهم لنكبة حلت بهم.. وانك لترى شاعرا من الطامحين الى أمجاد الدنيا يغالب الحرمان بالمغالاة في تفخيم نفسه فيقول مفتخرا بهمومه: أفاضل الناس أغراض لذا الزمن يخلو من الهم أخلاهم من الفطن وما رأيناه في سير الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين يؤكد أن عظم المنزلة مع ثقل الأحمال ومعاناة الصعاب. وقد جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ان العبد اذا سبقت له من الله منزلة فلم يبلغها بعمل، ابتلاه الله في جسده أو ماله، أو في ولده. ثم صبر على ذلك، حتى يبلغه المنزلة التي سبقت له من الله عز وجل».